Journal of the College of Education for Humanities
Volume 14, Issue ٢, 2024
ISSN:2707-5672

مجلة كلية التربية للعلوم الانسانية – جامعة ذي قار
المجلد (١٤) العدد (٢) ٢٠٢٤

مجلة كليّة التربية للعلوم الإنسانيّة

مجلة علمية فصلية محكمة تصدرها كلية التربية للعلوم الانسانية جامعة ذي قار

المجلد الرابع عشر، العدد الثاني ٢٠٢٤

ISSN:2707-5672

Journal of the College of Education for Humanities
Volume 14, Issue ٢, 2024
ISSN:2707-5672

مجلة كلية التربية للعلوم الانسانية – جامعة ذي قار
المجلد (١٤) العدد (٢) ٢٠٢٤

الديستوبيا والنبوءات المتخيلة

ناجي عباس مطر

كلية الآداب، جامعة ذي قار، ذي قار، العراق

الملخص

في اليوتوبيا يصحح الإنسان مستقبل الواقع من خلال افتراض حلول سحرية لكل المآزق التي تحيط به ،حيث يظهر المجتمع داخل المكان متحابا ومتفانيا في تقديم المحبة والواجبات تجاه الآخر ، لا مكان بذلك المكان للمرض والخراب والظلم، بمقابل ذلك ،هناك الديستوبيا التي باعتقادي أنها قديمة قدم الإنسان ،لأنه حاول تنبيه غيره للحقائق المتوقعة المؤجلة التي نظر إليها بمنتهى اليأس، فكانت إنذارا بحلول الخراب ،و صوّر المستقبل بشكل سوداوي يائس، حيث الفساد والخراب يعمّان كل الأمكنة الممكنة ، ثم يُجرّد أفراد تلك الأمكنة من النزعة الإنسانية ليكونوا مسوخا، يتحركون كالآلات بغير مشاعر ، واصبح الحب لا معنى له في الأدب الديستوبي. فالديستوبيا تعني المدينة الفاسدة أو عالم الواقع المرير، ولأنها تستشرف المستقبل ، فإنها تقدم تصوراً مظلماً جداً سيفقد البشر فيه الكثير من حريتهم، ومشاعرهم، أو مواردهم، لتحذرنا من ظواهر قادمة وقاتمة ستقود إلى الدمار إن لم نواجهها بتفهم وتعقل.

الكلمات المفتاحية : الديستوبي، اليوتوبيا ،المتخيل، النبوءة ، الخراب

معلومات البحث

تـــــاريخ القبول:٢٠٢٤/٣/٢٦

الاتصال: **ناجي عباس مطر**، najiabbas@utq.edu.iq

Journal of the College of Education for Humanities
Volume 14, Issue ٢, 2024
ISSN:2707-5672

مجلة كلية التربية للعلوم الانسانية – جامعة ذي قار
المجلد (١٤) العدد (٢) ٢٠٢٤

Dystopia and imagined prophecies

Naji Abbas Matar

College of Arts, University of Thi-Qar, Iraq

Abstract

In Utopia, man corrects the future of reality through the magical powers of all the predicaments in it. Where a place appears to be loving and dedicated to offering love and duties to others, there is no effective place for illness and injustice. On the other hand, there is the dystopia that society believes is as old as man who tried to alert his peers to the facts. The magazine we looked at from the end contracted it and alerted us to the coming of ruin. The future is depicted in a dark and hopeless way, as destruction permeates all places, dehumanizing those places, mutants prevail like emotionless machines, and love becomes meaningless in dystopian literature. Dystopia means a corrupt city, and because it predicts the future, it imagines a very dark forecast for the city in which man will lose a lot, his freedom, his feelings, his things, to warn us against evil. the darkness. Phenomena that lead to destruction that we have not encountered with understanding and reason

Keywords: dystopian, utopia, imaginary, prophecy, ruin

Article information
Accepted: 26/3/2024
Corresponding author: Naji Abbas Matar

الديستوبيا وجفاف اليوتوبيا

الأدب انعكاس لما يراه المؤلف في نفسه، ولما يراه في واقعه أيضا، فما يراه الأديب في نفسه من مجموعة عقد ومشكلات، تتعاضد لتؤلف محفزا سايكلوجيا لبلورة موقف أدبي، مما تخمر في أعماقه من إشكاليات. لذلك يخرج العمل الأدبي في الواقع كموقف قبل أن يكون تعبيرا وتنفيسا عن ذات المؤلف، ذلك أن الأدب بكل حال شفرة يضخ بها المؤلف مجموع الآراء التي تمثله، والتوقعات التي تعتريه ،والتي تأخذ شكل الصورة واللغة والسرد ، وبهذا الموقف يتساوى الأديب؛ شاعرا كان أم روائيا، لان الموقف الوجودي في الحالتين يظل مهيمنا.

وإذا كانت اليوتوبيا محاولة لتصحيح الواقع ،من خلال الهروب نحو الحلم ومحاربة الأخطاء، بضخ التوقع في شرايين الواقع ،فخطاب اليوتوبيا كما يقول الفيلسوف البولندي ليشك كولاكفسكي" لا يشير إلى جنس أدبي وحسب ، وإنما أيضا طريقة في التفكير، إلى عقلية ،إلى موقف فلسفي "( )، أي أنها فلسفة للأمل والتفاؤل فان الدستوبيا فلسفة للفزع والخوف والتشاؤم ومحاولة للاحتجاج على الواقع ،عبر تمجيد المشوه ،وجعل التوبيخ المتخيل مجالا للتصويب والتصحيح ، أي أن مجال اليوتوبيا يكون في المتخيل المتوقع ،الجميل،و الإيجابي ،بمقابل الديستوبيا المعنية بالمتخيل المتوقع ،المرير،و السلبي ،فـ"هو مصطلح يشير إلى مدينة فاضلة تُعاني خَلَلًا وظيفيًّا — محل المدينة الفاضلة (اليوتوبيا). قد تحمل المدن الفاسدة بُعدًا ساخرًا، كما في رواية الكاتِب الأمريكي من أصل أفريقي جورج سكايلر «نهاية الأَسْود» (١٩٣١) التي تحكي عن عالِم يكتشف طريقة لتغيير لون الجلد لكي يصبح التمييز بين العِرقَيْن الأبيض والأسود أمرًا مستحيلًا. ومع انتشار هذا العلاج، يبدأ المجتمع الأمريكي في التفكُّك؛ إذ يتسبَّب العِلْم الجديد في إحداث فوضى، بدلًا من تحقيق التحرر، الذي هو أحد الأهداف الرئيسية لليوتوبيا"( ) ، وفي الحقيقة أن أصل اصطلاح ديستوبيا "مأخوذة من اليونانية بمعنى المكان الخبيث"( )وإذا ما كانت اليوتوبيا هي التصوّر البشري لواقع مثالي ليس له وجود على ارض الواقع، فيخترعه المؤلف لكي يستوعب تطلعاته من خلاله ،بالتالي فإنه نموذج متخيل بكل حال، ، فإن الدستوبيا هي "اليوتوبيا المضادة anti) (utopiaوالتي تهدف في خططها الروائية إلى نقد التبعات السلبية الكامنة و آراء الانصياع لصيغ بعينها من الأفكار المثالية ، وعلى كل حال تميل الروايات الخيالية عن المدينة الفاسدة إلى تضمين بعد نقدي لاذع يرمي إلى التحذير من العواقب المحتملة لتوجهات معينة في عالم الواقع "( )، فهي بذلك تمثل التصور البشريّ للواقع في أقصى درجات السوء المتوقعة ، تجري حياكته عبر اقتراض تصورات سيئة، يتم تجميعها في العمل الأدبي، لتكون حاضنة لاحتجاجات المؤلف ،على واقع لا يقدم له الحلول المنطقية التي تجعله متعايشا معه، إذ" تكشف "الديستوبيا" عن الوجه الآخر للتخييل الأدبي، حين يتنبأ بمآسي مدينة منهارة، بدءا مما قد يخدش ظاهر صورتها من قبح معماري، مرورا بما قد ينخر نظامها من استبداد وظلم وفوضى وتدهور تام للقيم، وصولا إلى العدمية وانتفاء إنسانية الإنسان فهي بذلك خطاب تنبؤي يوجه " سهام النقد إلى مواقف في العالم الواقعي بإحالتها إلى سياق غير مألوف في عالم بالغ الخيالية، ويتكئ خيال اليوتوبيا المضادة على أفكار أساسية بعينها تنطوي _بطريقة أو بأخرى_ على تعارض وصراع بين الأحكام الاجتماعية والرغبات الفردية " ( ). فهما بذلك يشتركان في اقتراح الفانتازيا طريقة بإيصال خطاب تصويب الواقع ولكن بطريقتين مختلفتين فاليوتوبيا تحاول

التصحيح من خلال تتويج الأمل والتفاؤل والديستوبيا تحاول التصحيح من خلال الإنذار وتوقع الأسوء لذلك يمكن قراءة الخطاب الديستوبي " على أساس أنه تهكم لاذع ينتقد النظام الراهن ،أكثر منها فانتازيا مرعبة تجعل مدن الواقع الراهن بالمقارنة البديل الأفضل، وتبقى إحدى الصيغ الأكثر فائدة وذات الرصيد من الخيال العلمي .وهذا الرصيد يتحقق عندما يكون النقد الديستوبي للتبعات السلبية المحتملة للاتجاهات التكنولوجية والاجتماعية والسياسية ،مصحوبا بأطروحات البدائل أفضل في حيز الإمكان والتطبيق. وبهذا المعنى فمن الجلي أن الخيال الديستوبي ليس مضادا للخيال اليوتوبي، وإنما هو نوع مكمل له"( )،و في هذا الصدد تحديدا يعتبر ألنطوان شلحت أن معنى" ديسيتوبيا مفهوم فلسفي عكس فكرة يوتوبيا، و مكان الديستوبيا هو السيء الكئيب الذي يوجد فيه الفقر والظلم و المرض، وكمصطلح تستخدم ديستوبيا على وجه خاص بغية الإشارة إلى مجتمع وهميّ موجود غالبا في بيئة مستقبلية سيئة، و تكون اتجاهاته وغاياته متشائمة ورهيبة " ، ولعل صفة الوهمية هذه لا تكاد تكون حقيقية أو دقيقة" ( ) ٧

وقد ذكر الفارابي دلالة الديستوبيا باصطلاح آخر في كتابه آراء أهل المدينة الفاضلة سماه مضادات المدينة الفاضلة، وأعطاها تسميات متعددة مثل المدينة الجاهلة والمدينة الفاسقة والمدينة المبدّلة و المدينة الضالة، هي تسميات متقاطعة مع مفهوم المدينة الفاضلة معتبرا تلك التسميات إشارة لاجتماعات بشرية ناقصة غايتها ارتكاب الشر، والانغماس في الشهوات وممارسة اللذات والانشغال بجمع الثروة( ) ،معتبرا أن دلالة "المدن الجاهلة والضَّالَّة إنما تحدث متى كانت الملَّةُ مبنيَّةً على بعض الآراء القديمة"( ). ٩

ولا يملك صانع السرد إزاء كل ذلك إلا أن يرسل صرخات تمرد واستغاثة من حاضر متمادٍ في قساوته، ويطرق أجراس الإنذار من قادم كارثي أكثر إيلاما ورعبا وبحسب النقاد، يأخذ الرعب داخل النص الأدبي الديستوبي لونه من مسبباته التي قد تتمثل إما في حروب نووية، أو انفجار ديموغرافي، أو استنزاف للطبيعة، أو تحول ظاهرة الفساد إلى مؤسسة، أو الإجهاز على حرية التعبير، أو في انهيار سياسي بسبب اكتساح الشعوبية للحياة السياسية، أو غيرها من الظواهر. ومن هذه الزاوية، تبرز "الديستوبيا" الكيفية التي يتحول بها الخيال في الأدب إلى نذير شؤم ومثير للمخاوف، وكيف به يتأرجح بين الحلم المستحيل بـ" المدينة الفاضلة" والواقع المثخن بالجروح والمفاسد، الآيل إلى حتفه في حكم المجاز والحقيقة"( )فالرعب الذي يبثه الخطاب الديستوبي، استراتيجية تنبيه في واقع الأمر ،واستدراج المتلقي لمنطقة الخطر التي يتنبأ بها " فالجهَةُ التي منها يَنبثقُ الرّعبُ هي المادّة التي تَبْني مُتخيّلَ الديستوبيا .كُلّما هَيمنَ التخوُّفُ من ظاهرةٍ في فترة تاريخيّة مُعيَّنة، كان هذا التخوُّفُ بذرَةَ الديستوبيا، انطلاقاً من تخيُّل أثرِ هذه الظاهرة على المُستقبل وأثرِ امتداداتِها المُحتملة..إبّان الأزمات الاقتصاديّة مثلاً، يتولّدُ رُعبٌ من داخل التخوُّفات التي تُوَلّدها هذه الأزمات .في تنامي إيقاع التعصُّب والتطرُّف المُوَلِّديْن للإرهاب، يتلوَّنُ الرُّعبُ من الآتي بتهديداتِ الإرهاب للتعايُش وللحَياة المُشترَكة باكتساحِ التقنيّة للحَياة وإعادةِ صَوغ هذا الاكتساح لنَمط الوُجود الإنسانيّ، يأخذُ الرّعبُ مَلامحَ الآلة بارتفاعِ العلامات الدالّة على الكوارث البَيئيّة، يتنامَى الخَوفُ من دَمار الطبيعة ويغدو هذا الدّمارُ أساسَ تَخيُّل الحياة في المُستقبل .في تمزُّق المُجتمعات وطُغيان الحُروب، تأخذ الكارثةُ المُتخيَّلةُ في المُستقبل

صُورةَ الانغلاق والكراهيّة والاقتتال .إنّ الثابتَ في الديستوبيا هو هذا الرّعبُ مِنَ الآتي، الذي يَحتكمُ بصُورةٍ رَئيسَة، متى تمَّ الحديث عن الديستوبيا مُقترنةً بجنس الرواية، إلى تصوُّر الروائيّ عن الحاضر، وإلى الرُؤية التي بها يتخيّلُ المُستقبل، كما يَرتهنُ هذا الرُّعبُ أيضاً بمُوَجِّهات الرّوائيّ في تحليلِهِ، قبْل استشرافِ الامتدادات اللاحقة للمُرعبِ في الآتي مِنَ الزّمن. "( ). على وفق ذلك تبدو الرواية الديستوبية استثمار الأدب ليكون جرس الإنذار الذي يحاول منع الكارثة من أن تكون خيارا وحيدا داخل الواقع " هذا النوع من الأدب لا يستجيب إلى بيداغوجية الخضوع بل على العكس نجده يدعو القارئ إلى كشف عن قناع الوهم ، وهو ينبئنا عن أنفسنا وعن بحثنا المستمر عن الأمل في عالم يزداد انغلاقا من يوم لآخر . روايات الاستشراف الديستوبي قرن يعيش تحت طالع التدمير والمذابح، فهي تترجم عن الألم من خيبة الأمل التي تغذي عالما موغلا في الوحشية، إنها تعبّر عن قلق الإنسان المعاصر لإيجاد حلول. ولكن بعث القلق والحيرة في النفوس هو غاية الكاتب كما يؤكد ذلك سارتر"( ). ٢ ١

فهي بهذا المعنى نوع من النبوءة التخمينية اتجاه مكان لا يمتلك مؤهلات البقاء والمطاولة" ونتيجة للعالم الديستوبي الذي عاش فيه الكتاب والروائيون ، بدأ هؤلاء في التعبير عن المدينة المنهارة التي تمثل في القبح المعمارية استبداد الأنظمة والنظرة السلطوية السائدة في المجتمع ، يبدو لنا أن الكتاب من خلال كتابتهم عن الفوضى كانوا في الوقت نفسه يبحثون عن النظام، ومن خلال الديستوبيا يبحثون عن اليوتوبيا المفقودة أو على الأقل يتنبؤون بنهاية اليوتوبيا ، ويعبرون بهذه الطريقة عن رفضهم القاطع لهذا الواقع المرير"( ).بهذا المعنى فمثلما كانت اليوتوبّيا هي بحث عن نظام نوعي من خلال تشييد اللامكان المثالي المتخيل فان الدستوبيا هي اللامكان السيئ المتخيل "والأدب الديستوبي أو أدب المدينة الفاسدة أو أدب الواقع المرير ،هو مجتمع مثالي مخيف، أو غير مرغوب فيه ، تسوده الفوضى ومن ابرز ملامحه الخراب والقتل والقمع والمرض ،وهو يأتي في مقابل أدب اليوتوبيا(Utopia) أي المدينة الفاضلة واليوتوبيا بمعنى المكان الفاضل الذي ينشد السعادة لسكانه"( ) وفي الحقيقة فان سعي المؤلف لإنشاء نظام جديد على أنقاض النظام الطبيعي الذي لا يستوعب تطلعاته يجعله يخترع لا نظاما خاصا به ،ومن ابتكاره ، ليكون بديلا عن النظام داخل العمل الأدبي، فهو لا يؤسس للا نظام كنوع من الانتقام، أو إيمانا به، وإنما لأنه يريد الاحتجاج على ما يتميز به ذلك الواقع الذي يسعى لنسفه ،وإنشاء آخر بديل ومبتكر على أنقاضه ،من خلال نقض كل خصائصه ،ولعل أهمها النظام الذي يتحكم بمخرجاته، كأنه يريد أن يجعل الفوضى واجهة لاحتجاجه المكتوم بملامحه الفارقة ، ولكي يخترع ذلك اللا نظام، لابد أولا من تهشيم سطوة القانون داخله ،إذ أن "من أبرز ميزات المدينة الفوضوية هي عدم مراعاة القانون من قبل السكان ،وبشكل أخطر من قبل رجال القانون أي الشرطة... وهذا التعبير نقد للمجتمع الذي يهرب من القانون وتسوده الفوضى"( ). ٥ ١

إن الغرائبية التي يفترضها الأدب الديستوبي لا تكون لمجرد الإبهار، أو جذب المتلقي لمنطقة الدهشة المعتمة ،على وفق ما تقدمه تلك الغرائبية، وذلك الأدب العجائبي، من إرباك للقيم الجمالية السائدة بما يجعل المتلقي (مشدوها) إلى مجال ذهني تجريبي جديد، بل بسحب المتلقي إلى منطقة الكشف ،لان العجائبية التي يفترضها (يقرّبها) من الواقع فلا يتعامل معها القارئ على أساس إنها افتراضا مستحيلا، بل واقعا ممكنا على الأقل في حدود التوقع والتجريب" فالأدبيّة لا تُكتسَبُ من

المَوضوعة الموَجّهة للسرد في الرواية المُنتسِبة إلى الديستوبيا .ذلك أن الديستوبيا ليست خصائص أدبية مميزة ولا هي عناصر شكليّة، إذ ما يُكسِبُها أدبيّتَها هو اقترانها، في الغالب العامّ، بالرِّواية .الحُكمُ على أدبيّة الديستوبيا لا يتمّ، إذاً، من داخلها، وإنّما من وُرودها داخل الرواية، أي من تقنياتِ السّرد، وبناءِ الشكل الكتابيّ . لذلك، يُمْكنُ عدُّ ما يُعرَف بأدب الديستوبيا قريباً مِنْ روايات الرُّعب، مع اختلافٍ رَئيس، هو أنّ الرّعب في الديستوبيا مُرتبطٌ بالآتي مِنَ الزّمن، استناداً إلى مُعطيات راهنة وتهديداتٍ واقعيّة .تهديداتٌ تنطَوي على ما يُفضي إلى تَرجيحِ رُعْبٍ آتٍ من المُستقبل، وتخيُّلِ امتداداتهِ في مَراحلَ زمنيّة لاحقة"( ) ، بهذا المعنى يكون الأدب الدّيستوبي " بين خيال مغرق في التشاؤم يحتكم إلى الاحتمالات المقبولة علميا، وآخر، بقَصْدِية أو بِدُونِها، يتخطى كل ذلك ليحلق بعيدا خارج كل الضوابط، توجد مسافة فاصلة بين الحقيقة الممكنة والعجائبي الخارق وإن كانت تلك المسافة متخيلة أيضا. إذْ ينسج "أدب الديستوبيا" جانبا من سردياته بالاستناد إلى الخيال العلمي، الممزوج بكثير من الظلال القاتمة للتنبؤ بعالم قادم يحكمه الشر ويسوده الخراب وتنتفي فيه معاني الإنسانية والفضيلة. لذلك فإننا" عند حديثنا عن الدّيستوبيا، نقصد مكانًا لا يطمح أحدٌ للعيش فيه، حيث ذوبان حيث ذوبان المبادئ وانصهار الإنسانيّة"( ). على أن المهمة الرئيسية للأدبٌ الديستوبي ولكتّابه أيضا استشرافٌ المستقبل واستبطان ما هو سيء منه وإعادة إنتاجه جماليا ليحقق نوعا من التنبيه ، لذلك " يحاول هؤلاء الكتّاب توعية الإنسان المعاصر بالكارثة التي يتّجه نحوها العالم إذا هوى إلى البربرية ...إنها دعوة أخيرة لجعل العالم أقل فظاعة وأكثر إنسانية"( ) . ٨

غير أن الإغراق في مفارقة حدود الإمكان ينتقل بالسرد من منطق الخيال العلمي في ممكناته الرحبة، ليقترب به من النفس العجائبي. ويظل هذا التراوح عند التماس بين حدود العجائبي ، والانغماس في الخيال المسنود بخلفيات رؤيوية علمية محكا لحدس مدى توازن السرد، وحري به، على هذا النحو، أن يضع القارئ ضمن دائرة القناعة باحتمالية حدوث تنبؤاته، مادامت تنبني على حد معقول من أسانيد ذات مرجعية يمكن التحقق منها علميا"( )، . على أن النقل المشهدي للخْراب لا يحمل ملامح تنبؤية على الدوام، فالروائي أحيانا ينقل صورة قاتمة حقيقية للواقع كما يراها هو برؤية عين الطائر كما يسميها الناقد الروسي بوريس اوسبنسكي" فالروائي يكتب عن واقع لم يكن منسلخا عنه أو افتراضات مستقبلية تخرج من رحم الحلم والخيال ، فكل ما يكتب عبارة عن ديستوبيا معيشة لها حقائقها وتداعياتها في الواقع" ( )،وهو ما يعني أن الديستوبيا ليست نتاج عجائبية الخيال والتوقعات السيئة فحسب، بل أن كثيرا من الصور المشوهة المنقولة عن الواقع لتعكس صورة الخراب الموجودة هي صور واقعية، يتعمد الإنسان القفز عليها وعدم استحضارها إلى فناء المشهد لكونها صورا مؤذية مشوهة ،يعتقد المؤلف أنها تتوج القبح بديلا عن الجمال ، لاسيما أن الصورة النمطية للأدب تجعل الوظيفة السائدة له، تتلخص في صناعة الجمال وتحفيزه، فالأدب يجتهد بكل آلياته وأدواته لصناعة الإقناع غير المنطقي، والقبول بافتراضاته الخيالية لدى المتلقي ، فإن لم يجد الآلية التي تجعل من افتراضاته الخيالية إمكانا متصورا فقد فشل في مهمته الإبداعية، إذ أن مهمة الأدب التلاعب بذهنية المتلقي من خلال قدرته على الإقناع بالاستبدال النوعي للخيال مكان الواقع وبالعكس( )، وإذا كانت الديستوبيا اقتراحا فنيا لرؤية المستقبل بما يطرحه من رؤية تنبؤية للحاضر، فإنه بذلك يمثل تمجيدا خفيا للماضي، أو حنين مضمر له ،بما يقدمه من صورة مشوهة لذلك الحاضر الذي يستبطن مستقبلا منتظرا مشوها ،ف "الأدب الديستوبي الذي يصور واقعا سيئا ، لا مجال للعيش فيه: فشبح الموت يحوم في كل بقعة فيه، ليتحول الحاضر فيه دليلا على المستقبل الغامض، ويصبح الحنين

إلى الماضي مطلبا إلزاميا في نفوس الأفراد"( ). بدلا من ذلك المستقبل الذي يُتدفق منه الخوف والرعب كما يقدمّه الأدب الديستوبي ،إذ " تلتصق بالروايات الديستوبية ، صفة الرعب ، وهو رعب مرتبط بالآتي من الزمن ،استنادا إلى معطيات راهنة ، وتهديدات واقعية ، تهديدات تنطوي على ما يفضي إلى ترجيح رعب آت من المستقبل ، وتخيل امتداداته في مراحل زمنية لاحقة " ، كما تهتم الديستوبيا بتصوير ما غفل عنه الآخرون من تفاصيل أشد واقعية من تصوير حياة الرفاهية والجمال ،فهي تنتقل بالمدينة من مجرد مسرح للأحداث تتحرك فيه الشخصيات إلى أبعاد أخرى، أشد عجائبية ، فهي تصور الوجه البائس لأي مدينة ، وتكشف المسكوت عنه"( ). بذلك يحمل الأدب الديستوبي[٣]رسالة تكهن تتنبأ بمستقبل قاتم إذا[٤]لم يتم إصلاح الحاضر" من خلال تقديم صورة مشوهة ومخيفة لذلك المستقبل العُنصُرُ الباني لمَلمَحِ الديستوبيا مُرتبطٌ لا ببناءٍ نصّيّ، بل بمُتخيَّل يَرسُمُ مُجتمَعاً يُقلّصُ لدى أفرادِهِ الحُلمَ بالسّعادة، مُتخيّلٍ قائمٍ على التخوُّف مِنَ الآتي ومُغذٍّ لهذا التخوُّف في آن، على نَحو تَبدو فيه مدينةُ المُستقبل قاتمةً"( ) ، بذلك فهو يبعث برسائل مهمَّة تنبه الإنسان لضرورة الانتباه إلىّ تصحيح الحاضر لكي لا يقع في فخ المتوقع المخيف، إذ " تمثل الديستوبيا، مجتمعًا خياليًا سلبيًا ومظلمًا يتميز بالفساد والظلم والقمع والعنف.وقد تم استخدام الديستوبيا في الأدب العربي للتعبير عن المخاوف من المستقبل، وكذلك للتعبير عن الواقع السياسي والاجتماعي في المجتمعات العربية"( ).إن ما تقوم به الديستوبيا بدقة:[٥] الترويج للوهم المرعب ليكون محفزًا للتنبيه من المستقبل "ويَصيرُ هذ الوَهمُ المُتوقّعُ للمُرعب هو ذاتُهُ ما يُوَلّدُ الرُّعب، لأنّهُ يَصيرُ خَوفاً مِن المُستقبل واحتماءً بالماضي"( ). وفي ظني أن خطاب الرعب[٦] ممهد ضروري، لتعطيل إرادة الإنسان في الفرز والمقاومة، ومن ثم يصبح باستطاعة الباث تعبئة المتلقي بخياراته الثقافية ، فلا غرو أن نجد إن معظم الأفلام السينمائية الأميركية التي تروج للمبادئ الأميركية ،وتفخم من رمزيتها تفتتح العرض بخطاب الرعب الديستوبي، قبل أن تختم ببطل أميركي يهزم سدنة ذلك الرعب ويهيأ الكون لحياة آمنة، فيكون بذلك الوسيلة التي تساعد في تعطيل وتحييد إرادة المتلقي ومن ثم يسهل تعبئته من جديد بما يرغب الباث من أفكار وآراء جديدة .

مهام الديستوبيا

تعرّف الديستوبيا بكونها ربط المهام التي يقترحها التخمين السيئ للمكان على وفق مبادئ مغايرة لما هو موجود فعلا ، من خلال اقتراح فضاء فاسد ومصطنع، لمدينة ما ، وتأثيثه بالخراب ،ليكون ذلك المكان– المدينة نقيضا للمكان المثالي، فـ"المدينة الفاسدة مكانًا يكره الإنسان المكوث فيه، حيث أنّ كثرة الأحداث تدور فيها تجعلها مكانا غير صالح للحياة ، لذلك تضيع فيها الإنسانية، ويعاني الفرد داخلها من الضياع من خلال التساؤلات المتكرّرة للرّاوي وهو يقول ":من انا؟ "( ) ، فهي المكان البشع حصرا لكن حيث أن المكان قيمة ظاهراتية تتعلق بمستويات الفهم النوعي للمكان عند الإنسان وهي مستويات متباينة تبعا لنمطية الثقافة من جهة ولعلاقة المرء مع ذلك المكان من جهة ثانية فالصحراء مثلا مكان بشع ومتوحش غير أليف لفئة ما ، ومكان حميم وأليف جدا لفئة أخرى وهو تباين يجعل صورة المكان زئبقية بكل حال ، فانه بتلك الحال يتحول من اثر جغرافي محدود إلى حالة شعورية مطلقة ترسم ملامحها بشكل رمزي على مشاعر الإنسان وأفكاره متجاوزة الأثر النسبي لتكون جزءا من مزاج ثقافي مطلق، بهذا المعنى لا يمكن للديستوبيا أن تتجاوز إطار المكان المتخيل البشع لتكون

مفتاحا لحالة شعورية أكثر شمولية من السجن داخل المكان المبتكر بكل ما يحمله من بشاعة اصطناعية متخيلة ، فـ"على عكس قصص المدينة الفاضلة –التي تروي في بعض الأحيان عالمها الخاص أو بعبارة أخرى أهدافها الواعدة– تنزع قصص المدن الفاسدة إلى تقديم عالم قائم بالفعل ، بينما يتبع السرد عادة عملية تفكيك نظام الحكم القائم عبر ممارسات بطل غير متأقلم –مضطرب إلى حد ما مثل مونتاج– في إطار علاقته مع الوضع الراهن الساري"( ) . ٨

ولعل الغالب في رصد الديستوبيا ومتابعة تأثيراتها الرمزية على المكان في المدينة الفاسدة داخل الرواية باعتبار أن المكان ثيمة مهيمنة داخل الرواية ولكننا بهذه الحالة أمام سؤال مهم: هل توجد الديستوبيا في الشعر، لا سيما أن المكان موجود بقوة داخل القصيدة وان كان بتفاصيل أكثر اختزالا من المكان المتخيل الموجود في الرواية، وهل التشويه الذي تطرحه الديستوبيا محصور في نطاق المكان أم في إطار الأشخاص الذي يكسبون المكان عنوانا مغايرا فالمكان لا يكون مشوها إلا بسبب المسوخ الذين يكسبون المكان هوية مغايرة لأصل وجوده ولا يوجد مكان سيء بأصل وجوده، فالإنسان السيئ يجعل المكان الموصوف سيئا وبالعكس، فالمكان البشع يفقد خصائصه الطبيعية مهما كانت مشوهة حين يقترن بحالة مثالية أو بأشخاص رائعين ويمكن تلمّس ذلك بقول عنترة:

لا تسقني ماء الحياة بذلّة بل فاسقني بالعزّ كأس الحنظل

ماء الحياة بذلة كجهنم وجهنم بالعز أطيب منزل( ) ٩ ٢

فجهنم ألحقت صورتها بهوامش دينية وأسطورية جعلتها مكانا ديستوبيا مقررا ونهائيا لكن الشاعر يعزل عنها ديستوبيتها ليكسبها عنوانا آخر حين تقترن بحالة مثالية، مثلما كان المكان الحيوي الذي يقترن في العادة بالحركة والجمال يتحول إلى مكان ديستوبي في حال ارتبط بحالة سيئة ، وهو ما يجعلنا نقر أن المكان المشوه ليس مكانا سلبيا وفاسدا في أصل ما يكون، بقدر ما يكون كذلك تبعا لعلاقات الاقتران التي ترتبط به، بهذا المعنى يكتسب المكان صفاته ممن يعيش فيه و يكون معنى الديستوبيا المجتمع غير الفاضل الذي تسوده الفوضى، في ذلك العالم الوهمي المختلق أدبيا لا وجود للخير فيه لان الشر يحكمه بشكل المطلق، حيث يبدو أن أهم ملامحه هو الأنانية والغدر و الخراب، والقتل والقمع والفقر والمرض، باختصار هي ذلك العالم الذي يتجرد فيه الإنسان من إنسانيته ،ويتحوّل فيه إلى مسخ يتناحر مع مسوخ تشبهه، إنها النقيض المتخيل لصورة الحاضر في مقابل كل ما هو مثالي مستقبلي ، "إذن الديستوبيا تختلف عادة عن اليوتوبيات فهي مرتبطة بوضوح بالحاضر الذي تكتب فيه .ورغم أنها كابوسية لكنها تقدم رسالة إيجابية إلى جانب رسالتها السلبية، فهي تلخص مقولة مؤسس أدب الخيال العلمي الإنجليزي اتش جي ويلز (١٨٦٦–١٩٤٦):أن هذا ما يحدث إن لم نتخذ الإجراءات اللازمة التي من خلالها نتجنب هذا المستقبل"( )، وفي ظني أن الديستوبيا من نُتاجات الاستغراق في تخيل اليوتوبّيا وكلما أوغل الإنسان في بناء تصورات مثالية لمجتمع نموذجي ،أوجد الظروف المهيأة لتخيل تصورات ديستوبية لانهيار اليوتوبيا تكون في الأساس مجالا للإنذار والتصحيح لكنها لا تلبث أن تكون قيمة قائمة بذاتها، وقد تتخذ تلك التصورات أحيانا منهجا ساخرا من اجل تصويب الأفكار اليوتوبية ، فالسخرية في أغلب ممارساتها مجالا للتصحيح أكثر من الانتقاص ،فـ" في كثير من

الأحيان أسفرت محاولات بناء العوالم المثالية عن الوحشية والاستبداد ويبدو أن أحلام اليوتوبيا قد أفسحت المجال أمام الرؤى البائسة الديستوبية للمستقبل القمعي. فعلى سبيل المثال قدمت اليوتوبيا تصورات إيجابية بشأن النتائج العلمية وأثرها على الحياة البشرية، بينما الديستوبيا طرحت تساؤلات حول قيمة العلم في مقابل النتائج السلبية له على الحياة الإنسانية ،فان ثمة لكل يوتوبيا ما يقابلها من نقيض (ديستوبيا) يمثل محاكاة ساخرة له إذ إننا نجد النصوص الديستوبية جميعها تقدم سيناريوهات قاتمة للمستقبل" (١ ٣).

في اعتقادي أن الوعود الغيبية للمسيئين التي حفلت بها الكتب الدينية ، والأساطير القديمة التي صورت واقعا مشوها بانتظار الخارجين على سلطاتها العقدية تمثل أولى ملامح الديستوبيا بشكلها الافتراضي، ويمثل شكلها المخيف الذي تعمد إلى تصويره محاولة لإرسال رسائل الرعب لغير المؤمنين بتلك الافتراضات الميتافيزيقية، لذلك فان التصوير السردي المخيف للنار مثلا في الكتب السماوية رسما بيانيا لديستوبيا مرعبة تنتظر المخطئين ، وكذا الأمر في التصوير الفانتازي للأساطير القديمة التي تصور واقعا لا وجود له لكنه موجود بالقوة لدى المؤمنين بإرهاصات تلك الأساطير ، فالمعركة بين عشتار والثور السماوي في منطقة ما من الفضاء ديستوبيا افتراضية . بينما تحولت تلك الافتراضات العجائبية المشوهة في الأدب إلى مجال لصناعة الإبهار الجمالي ولو من خلال القبح، ذلك أن الدهشة ليست نتاج الجمال فحسب. بل تتظافر عوامل عديدة في ابتكارها وتأجيجها. الديستوبيا بهذا المعنى عالم الواقع المرير الذي يتشكل من مجتمع خيالي، فاسد ،أو مخيف، أو غير مرغوب فيه بطريقة ما، مجتمع غير فاضل تسوده الفوضى، والفانتازيا فهو عالم وهمي مكرس للشر والأشرار وليس فيه مكان للخير ، إذ يتحكم فيه الشر المطلق، وتتجلى ابرز ملامحه في الخراب، والمرض، والقتل الذي يسود كل المشاهد المختارة لتأثيث ذلك الفضاء ، حيث يتجرد فيه الإنسان من إنسانيته ، ويتحوّل فيه المجتمع إلى مجموعة من المسوخ التي تقتل بعضها بعضاً.

لذلك فأنا أظن أن من أولى النصوص التي اقترحت الديستوبيا منهجا لها في الوصف كانت الكتب الدينية التي طرحت رؤيتها لما ينتظر غير المؤمنين بافتراضاتها الميتافيزيقية ، فـ" لقد ظلّ الرُّعبُ مِنَ الآتي مُصاحِباً دَوماً للإنسان، ومُتسلِّلاً أيضاً لكتابتهِ حتّى وإنْ لم تُصنَّف النُّصوصُ القديمة في مَنحى كتابيٍّ يَشتركُ في مَوضوعةِ الرّعب مِن الآتي، وفي مُتخيّلٍ يقومُ على رَصْدِ ما يَحرُمُ مِنَ السعادة في المُستقبل .إنّ مظاهرَ تسلُّل هذا الرّعب إلى الكتابة عريقٌ، بل إنّهُ أسْهَمَ في ظهور أوعاءَ مُختلفةٍ عن الزّمن .ذلك أنّ الرّؤية إلى الزّمن مُحدِّدٌ مَركزيّ في الديستوبيا .فمثلما غذَّت حياةُ المَرْءِ وأوضاعُ المُجتمعات مُتخيّلَ اليوتوبيا، غذَّت أيضاً مُتخيّلَ الديستوبيا .قد تكونُ لهذا التقابُل تجلياتٌ أخرى غيرُ مُقتصرَةٍ على الأدب، إذ يُمكنُ العُثورُ على صُوَر أخرى له، وإنْ بمُوَجِّهاتٍ مُغايرة، حتى في الخطاب الدينيّ عندما يَرْسُمُ المُستقبَلَ عبْر التقابُل بين الجنّة والجَحيم"( ) لهذا فأننا نستطيع أن نفترض[٢] وجود ديستوبيات متعددة في القرآن[٣] الكريم بما يتعلق بوصف حال الكافرين في جهنم فقوله تعالى " خذوه فغلّوه *ثُمّ الجحيم صلّوه *ثمّ في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه * فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ * وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ* لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ *(سورة الحاقة الآيات ٣٠-٣٧). تمثل وصفا ديستوبيا لحال الكافر باليوم الآخر ،فمن أولى علامات الديستوبيا تجاوز الحدث المشوه لأية مقتربات واقعية لكونها تخمين مشوه للواقع فهو ينتمي

للافتراض أكثر من كونه ينتمي للمتوقع ،فالصورة الديستوبية تنتمي للخيال الفانتازي الذي ليس له أية اقترانات بالممكن إلا في حدود الافتراض المتخيل ، وحيث أن الوصف القرآني لسردية عذاب لكافرين تنتمي للسرد المتخيل الذي لا يمكن مشابهته بنظير واقعي فان ذلك السرد في حقيقته سرد ديستوبي .وكذا الحال مع قوله تعالى إن شجرة الزقوم * طعام الأثيم *كالمهل يغلي في البطون * كغلي الحميم * خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم * ثم صبوا فوق رأسه* من عذاب الحميم (سورة الدخان الآيات ٤٣-٤٨) فشجرة الزقوم صورة فانتازية بغاية تأثيث الصورة الديستوبية بما هو خارج مستويات المتوقع لذلك في أية ثانية حين يصف القران تلك الشجرة العجيبة يكسبها صورة مرعبة لا يمكن تخيلها بالسياقات المألوفة للوعي بقوله تعالى أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ * إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ * إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ * فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ * ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ(سورة الصافات الآيات ٦٢-٦٧. كما أننا لو تتبعنا الاية٥١ من سورة الواقعة نجد ذات التفصيل الديستوبي لما ينتظره الكافرون(ثم إنكم أيها الضالون المكذبون ، لآكلون من شجر من زقوم ، فمالئون منها البطون ، فشاربون عليه من الحميم ، فشاربون شرب الهيم) أما في سورة إبراهيم الآية ٤٨ فهناك شرح تفصيلي لذلك المكان المرير فيقول سبحانه (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار وترى المجرمين يومئذ مقرنين في الأصفاد سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار ليجزي الله كل نفس ما كسبت إن الله سريع الحساب) إذ يبدو السياق القرآني جاء ليشرح طبيعة ذلك المكان الموعود لمن لم يخش الله سبحانه. وفي سورة عبس (الاية٣٤-٤٢) سنجد تفصيلا مغايرا بتأثيث ذلك المكان ،لان النص القرآني يعمد إلى صناعة صور متعددة لذلك المكان المرير كنوع من أنواع التحذير والإبلاغ للناس، لعلهم يبتعدون عن تلك النهاية (يَومَ يَفرّ المَرءِ من أَخيه* وَأمّه وَأَبيه *وَصَاحبَته وَبَنيه* لكلّ امرئ منهم يَومَئذ شَأنٌ يغنيه* وجوه يومئذ مسفرة * ضاحكة مستبشرة * ووجوه يومئذ عليها غبرة * ترهقها قترة * أولئك هم الكفرة الفجرة) وكل الأمكنة الديستوبية التي حرص القرآن الكريم على إشهار بعض تفاصيلها غايتها تحذيرية وتأديبية للناس ،لعلهم يبتعدون عن الزلل، وهو جزء من آلية تأديب اتخذها القران، ضمن استراتيجيات بناء الإنسان الكامل التي سعى لتأسيسها. لذلك فأن تعددية أسماء المكان الديستوبي الذي وعد الله سبحانه به الكافرون، يتبدل أيضا بتبدل الصور القرآنية التي تصور ذلك المكان وتؤثثه ففي سورة الهمزة (الاية١-٩) يقول سبحانه وتعالى (ويل لكلّ همزة لمزة *الذي جمع مالا وعدده *يحسب أن ماله أخلده* كلا لينبذن في الحطمة* وما أدراك ما الحطمة* نار الله الموقدة* التي تطلع على الأفئدة* إنها عليهم مؤصدة* في عمدٍ ممددة) ، يمثل التهديد الديني محاولة لاختلاق ذاكرة انتقالية مؤجلة للإنسان، تؤثثها بكل أنواع السرود المخيفة لتكون محرضا له على الاجتناب والتفكر.

في الرواية استخدم السرد الديستوبي بقوة من اجل تأثيث الحدث الروائي بفضاء مبتكر يستوعب الفكرة المتخيلة التي يراد بثها ولعل رواية فرانكشتاين في بغداد مارست السرد الديستوبي بقوة محاولة لرسم صورة مشوهة لواقع ما بعد ٢٠٠٣ وفي اعتقادي أن وراء ذلك قصد مضمر فيه نوع من الثأر الرمزي من العهد الجديد وإلصاق تهمة معلّبة بجهة ما، لتتحمل وزر التشويه الحاصل في الواقع السياسي والاجتماعي ،عقب التغيير الذي قلب معادلات ديموغرافية وثقافية مهيمنة لعهد طويل، وفي ظني أن احتفاء النقد العربي بتلك الرواية كان كنوع من الامتنان للمؤلف الذي رفع تهمة البشاعة عن القاتل الحقيقي وألقى التهمة الجاهزة على جهة(طائفية) غير مرغوب بها من المزاج الرسمي العربي. فكل النكبات والتشوهات التي جرت ببغداد كانت

بسبب كائن (مصنّع) من أجزاء بشرية شيعية قتلت (السني) والمسيحي والشيعي أيضا وكان ذلك الاعتراف الثقافي من ضد نوعي ينتمي في الأصل لذات النسيج الحاكم الذي وقع عليه الإرهاب والقتل كافيا من الضمير القومي لإشهاره والاستدلال به على مظلومية متخيلة فكان أن فضّلت منظومة النقد العربي الرسمي الاحتفال بالرواية والتركيز عليها كدليل إدانة من شاهد ينتمي لجنس القاتل المفترض .

الديستوبيا وأسبابها

يظن البعض أن الحروب تدخل الإنسان إلى اليأس ،والتشويش التي تجعله مجبرا على اصطباغ كل مساحات التعبير لديه بالسوداوية ،والتشاؤم كنوع من أنواع التعبير عن المحن التي تحاصره ،أو وصف فانتازي للحال المفجع الذي وصل إليه ،فيصوّر المرء الفضاء الذي يعيش فيه بأبشع صور الوصف ،لينقل بعض ملامح التشوه التي تحاصر روحه، بفعل الظروف الاستثنائية التي سلبته إمكانية صناعة الجمال، بهذه الحال فالديستوبيا حاجة أكثر من كونها طريقة تعبير، فـ"قد انتشرت ما أطلق عليه (الروايات الديستوبية)الغربية في مرحلة الحروب العالمية وانتشار الآلات والذكاءات الصناعية تعبيرا عن حالة العبثية، واليأس، وصورة، أو ردة فعل على الأمراض العصرية المنتشرة في تلك الآونة والتي تضخمت أكثر في وقتنا الراهن"( ) ،فالتردي القيمي السائد والانحلال الفكري الذي صار يطيح بالثوابت لهما انعكاسات لابد منها على طرائق التعبير التي ستكون شكلا من أشكال الاحتجاج الناعم على ذلك السقوط الذي يحاصر الإنسان بالقلق والخوف معا، فتكون كتابته الديستوبية نبوءات أدبية لما سيكون عليه الحال في ظل خيبة الأمل المتلاحقة التي طبعت ظلالها على كل شيء ،لاسيما أن الأدب عموما فعل جمالي يتحرك نحو المستقبل وان خاض بأحداث ماضية أو كان يخوض وقائع الحاضر لأن المستقبل يظل الأفق المهيمن على الفعل السردي والجمالي داخل بنى النص الأدبي، ولو تفحصنا أدب الخيال العلمي الذي تمثل الديستوبيا أحد وجوهه المعلنة فأن ذلك الأدب يمثل استقراءً، واستشرافا للمستقبل، بوقائع متخيلة يستمدها المؤلف من تصوراته لذلك المستقبل، لذلك فانه يحشو الصور الأدبية بمخاوفه ،وتخيلاته، إلى جانب توقعاته الجمالية ،لأن ذلك يسوغ له هروبه من ذاته، وانسلاخه عن الواقع الذي يحاصره، أكثر من كونه يحتويه ، وتكون الكتابة حينئذ شكلا من أشكال نفي الحضور، والقطيعة معه ؛الحضور بكل تصوراته الحميمة والمؤلمة معا ،نفي جمالي للماضي والحاضر معا والسعي لتأكيد سيادة المستقبل ؛الماضي بكل تحولاته الوجدانية الحميمة ،وبشاعة الحاضر بكل إرهاصاته المؤلمة "بهذا المعنى فإن جوهر الانفصال لا يكمن في الفصل والقطيعة، وإنما في لا تناهي الفصل ولا محدودية القطيعة، فليست القطيعة هي حلول حاضر يجبُّ ما قبله. القطيعة هي انفصال لا متناه، أي أنها حركة دائبة دائمة لا تنفكّ تتم. ليست القطيعة انفصالا بين حاضرين ، بين حضورين ، وإنما خلخلة للحضور ذاته. إنها إقحام للا تناهي داخل الكائن"( ) . ٤

واذا كان الحب ثيمة رئيسة بكل ما هو جمالي ويوتوبي، فان الكراهية ،والقطيعة مع الآخر ستكون هي الفعل المهيمن داخل الأدب الديستوبي ،فلا مكان للعاطفة في الديستوبيا، حيث تغلب على الأشخاص التجرد من الانتماء الوجداني للآخر أيا كانت صفته ، فالحب يصنع الحياة، والديستوبيا معنية بالقطيعة مع الحياة، وبناء بديل مشوه عنها، من خلال اختلاق واقع مفرغ من جميع الملامح الإنسانية يقوم على أساس تمجيد الجهل، والقتل ، وهيمنة الظلم على كل مفاصل الحياة لأجل صياغة

مبررات ثقافية معينة،لسيادة عالم يهيمن فيه انهيار القيم ،والأخلاق ، وفقدان المبادئ. على أننا يجب أن نؤمن، انه على الرغم من الاختلاف البيّن بين اليوتوبيا والديستوبيا في طبيعة الافتراض المتخيل لكل منهما ،حيث تعرّف الديستوبيا في العادة بأنها يوتوبيا فاشلة أو مضادة إلا انهما في الواقع يقترنان بعلاقة رمزية متواشجة ففي كل داخل كل يوتوبيا هناك عناصر ديستوبية وبالعكس ،ومهمة ذلك المضمر، إبراز الجانب التبشيري أو التبريري لدى كل منهما " فالديستوبيا هو مجتمع خيالي، وعالم وهمي يحكمه الشر، ويتجرد فيه الإنسان من إنسانيته، ويتحول فيه المجتمع إلى مجموعة يتقاتل بعضها مع البعض الآخر، ولهذا صار مصطلح الديستوبيا بمثابة أدب المدينة الفاسدة ، وقد كتب الكثير من هذا الأدب في العالم ضمن هذا التوجه، منذ كافكا بمجمل أعماله، ورواية ١٩٨٤ لاوروبل، ورواية ٤٥١ فهرنهايت لراي براد بيري، وكذلك الدوس هكسلي في روايته عالم جديد شجاع، وجاك لندن في روايته العقب الحديدية، وانتوني بيرجس في روايته البرتقالة الآلية، والكثير الكثير من الروايات التشاؤمية التي حملت نظرة سوداوية عن الواقع المعاش والخوف من المستقبل المحمل بنذر الشر والموت، أما في ما يخص السرد العربي، فهناك أيضا أمثلة كثيرة استطاعت أن تؤسس لنظرة ديستوبية واضحة، من خلال نصوص روائية مر عليها عقدان من الزمن، فهناك مثلا احمد خالد توفيق في الكثير من رواياته، ومحمد ربيع في روايته عطارد، وواسيني الأعرج وسعود السنعوسي وبثينة العيسى، وفي العراق وحيد غانم وروايته الحلو الهارب إلى مصيره، وكذلك نصيف فلك ورواياته خضر قد وقياموت وفص دوكو ورواية تابو(لحميد المختار)، وكذلك احمد خلف وروايته محنة فينوس، واحمد سعداوي وروايته فرانكشتاين في بغداد، وحميد الربيعي وروايته احمر حانة"( ) .والحديث هنا عن لا مكان ارْضي يخترعه المؤلف بغاية تحريك كائناته المختلقة على أرضية تواءم وبشاعة الأحداث التي يريد من خلالها تمرير خطابه الحانق ،ولكن هناك لا مكان فضائي، أي انه لا يحمل ملامح أرضية ،اعتاد المرء على مقارنتها بما هو موجود ،ويمكن متابعة ذلك في قصص الفضاء، التي تحاكي أمكنة مهجورة يصل إليها الإنسان فيؤثثها المؤلف بما يجعل منها عالما متفردا ،وقد اطلق عليه ميشيل فوكو اصطلاح الهيتروتوبيا " واستخدمه كمصطلح يتناقض مع مفهوم اللامكان المميّز لقصص اليوتوبيا، أي كفضاءٍ وسطي هجين ذي وضع غامض، يتمتع بواقع مادي لكنه يُضفي كذلك تعقيدًا على الموقع. يصلح هذا المفهوم تحديدًا للتطبيق على التصوُّرات الحديثة للمدينة كما في رواية صامويل ديلاني دالجرين (١٩٧٥)، حيث يسود عدم الترابط بين المواقع؛ أو في رواية تشاينا مايفيل "المدينة والمدينة" (٢٠٠٩)، حيث ينتقل القارئ بين نطاقات متباينة، واضحة في بعض الأحيان ومتداخلة في بعضها الآخر"( ) .

٣ ٦ ٣

ديستوبيا الزمان

ارتبط مفهوم الديستوبيا بالمكان الفاسد ،ولكن هل هناك زمان فاسد؟ وهل يصح أن نفرزه ضمن نطاق أدب الديستوبيا؟ في الواقع إن ارتباط المكان بالزمان يجعل ذلك الفهم ممكنا، فـ"في الديستوبيا، يجد الإنسان نفسه ساكنًا في مكان غير مرغوب، فمن الطبيعي أن يكون هذا التواجد في الزمن الخطأ" ( ) .

٣ ٧

لنعرف أولا معنى الزمان الفاسد، وهو الزمن الافتراضي الذي يتحدث عنه النص سواء كان في الزمن الماضي غير التاريخي أو الزمن المستقبلي، بشرط أن معظم أحداثه السردية لا تنتمي لما هو يقيني، فالحديث عن أشخاص في آخر الزمان بالروايات

الدينية التي تتحدث عن أشخاص سيئين سيملؤون الدنيا دما ورعبا ،وتوفر لهم مواصفات متواترة، تنتمي للديستوبيا في الواقع، وهذا الوصف لن يطعن قطعا بقداسة تلك النبوءات، لأننا نتحدث عن فرز ثقافي وأدبي، وكذا الأمر في السرديات الدينية التي تتحدث عن افتراضات بدء الزمان وكيفية الخلق وتأسيسه والصراع الذي اعقب ذلك التأسيس ، فكل ذلك الواقع تصور افتراضي ونوع من الديستوبيا التي تصور المآزق التي أعقبت الخلق الأول ، وكذا الأمر في الأساطير البشرية لدى كل الأمم التي تصور الصراع البدئي بين قوى الخير وقوى الشر . لكن ارتباط الديستوبيا بأدب الخيال العلمي جعلها ترتبط بالمستقبل بكل الأحوال، لان ذلك الأدب استغرق في وصف أحداث الزمان المستقبلية وكيفية صياغة واقع غرائبي إذ" يرتبط الخيال العلمي ارتباطًا وثيقًا بالمستقبل — أو بالزمن عبر جوانبه المختلفة — أكثر من أي نمط أدبي آخر، فهو في النهاية أدب عن التغيُّر، والتغيُّر حسب تعريفه يفترض ضمنًا إدراكَ أن الحاضر لا ينفصل عن تصوُّرات الماضي وتوقعات المستقبل التي تشكِّل ذلك الحاضر"(٨ ٣).

ويمكن النظر للسرديات الثقافية ومن خلال الميديا التي يبثها الإرهابيون، بوصفها إنتاجا لفضاء ديستوبي نوعا ما، غايته بث الخوف والرعب في قلوب الآخرين لهذا كانت مشاهد الحرق أو الغرق أو الذبح شكلا من أشكال استدعاء الديستوبيا عبر استدانة بشاعة من التاريخ البعيد ورواياته المندثرة ومحاولة إحيائها من جديد ،وإضافة شرعية مستعارة لتلك الجهات عبر شحنها بالتاريخ المقدس. فعملية قطع الرؤوس التي يبثها الإرهابيون فضلا عن كونها عملية رعب لأجل تركيع الإرادة لدى الآخر لكنها كسردية إعادة تأهيل الحاضر الذي تنتمي له جماعة القتلة وإعادة ربطهم عبر ذلك الفعل المتوحش بالرعيل الأول الذي يمثل الأصل المؤسس للجماعة.

في النبوءات الدينية لدى كل الأديان تأسيس بصري لشكل الديستوبيا التي تنتظر الكافرين ففي التوراة سفر الرؤيا/١٦ نجد (ثم سكب الملاك السادس جامه على النهر الكبير . الفرات . فنشف ماؤه لكي يُعدَّ طريق الملوك الذين من مشرق الشمس، ورأيت من فم التنين ومن فم الوحش ومن فم النبي الكذاب ثلاثة أرواح نجسة شبه ضفادع فإنهم أرواح شياطين صانعة آيات تخرج على ملوك العالم وكل المسكونة لتجمعهم لقتال ذلك اليوم العظيم يوم الله القادر على كل شيء، ها أنا آت كلص، طوبى لمن يسهر ويحفظ ثيابه لئلا يمشي عرياناً، فجمعهم إلى الموضع الذي يدعى بالعبرانية هرمجدون) فالتوراة تبشّر بحدث مستقبلي سيعم فيه الخراب ويتأسس المكان على الدم المراق، كنوع من أنواع زيادة الاطمئنان لدى التابعين ،وبث الرعب في قلوب المناوئين فيتحدث هذا السفر عن معركة ختامية يذهب فيها مئات الملايين من البشر ، والغريب إن كل الأديان تسابقت في مزايدات السرد والاحتكار لروايات ذلك الحدث ، بوصفه وعدا تحتكر تفاصيله ،وأن نتائجه التالية ستكون لصالحها ، ففي الإنجيل نجد في الإصحاح الثاني من سفر أشعياء:(إنه في آخر الأيام سيظهر النبي المنتظر وسيحارب اليهود الكافرين والأمم الكافرة في يوم الرب على أرض هرمجدون في الساعة التي قال عنها المسيح عليه السلام انه لا يعلمها إلاّ الله وحده) وقد أوردت مصادر الشيعة أحاديث معركة المهدي الكبرى هذه (وأن طرفها المباشر السفياني وخلفه اليهود ودول أوروبا، ويمتد محورها من أنطاكية إلى عكا أي طول الساحل السوري اللبناني الفلسطيني ثم إلى طبرية ودمشق والقدس وفيها تحصل هزيمتهم الكبرى الموعود)( ) ، كما أن إسهاب الكتب الشيعْية في وصف أحداث آخر الزمان إنما بتأثيث فضاء ديستوبي

يجعل استيعاب المتلقي وتصديقه معقولا ومقبولا ،فبغير تغيير خارطة المكان المعلوم إلى آخر (مصنّع) لن يتم ابدآ نقل المتلقي إلى منطقة التوقعات، واستسلامه لها لذلك مثلا يصف كتاب عصر الظهور نقلا عن بحار الأنوار حالة المكان إبان ظهور إمام الزمان بقوله "ولذلك آيات وعلامات: أولهن إحصار الكوفة بالرصد والقذف. وتخريق الزوايا في سكك الكوفة . وتعطيل المساجد أربعين ليلة. وكشف الهيكل. وخفق رايات تهتز حول المسجد الأكبر، القاتل والمقتول في النار"( ) .

الخاتمة

الديستوبيا هي أدب المدينة الفاسدة أو عالم الواقع المرير وهي تتحدث عن مجتمع خيالي، فاسد ومخيف: مجتمع غير فاضل تسوده الفوضى والإرباك، وحيث أنه أدب خيالي ،فذلك يعني أنه يصطنع عالما وهميا ليؤدي فيه رسائله الجمالية، عالم وهمي يسوده الشر المطلق وليس فيه للخير أي ، ويشكل الخراب والفوضى والمرض العلامة الفارقة فيه، باختصار هو عالم يتجرد فيه الإنسان من إنسانيته ،ويتحوّل فيه المجتمع إلى مجموعة من المسوخ تناحر بعضها بعضًا. وإذ تكمن أهمية الديستوبيا في اعتمادها على الخيال فهي استثمار للخيال لأجل توجيه النقد غير المباشر للمجتمع وللنظم المختلفة فيه. على أن الديستوبيا ليست اتجاها أدبيا فحسب بل إنها موقف وواقع نعيشه عبر التاريخ الإنساني يتخذ من الأدب بما يحمله الأدب من قدرة تخمينية في التوسط لدى الآخر ليتمكن من فهم الأخطار المحدقة والمتوقعة بطريقة جمالية ،بعيدا عن التعالي الذي تفترضه اللغة الكهنوتية في العادة.

وإذا كانت الديستوبيا قد ارتبطت بالمكان وبالمدينة الضحلة أو الفاسدة فإني أظن أننا بالإمكان اقتراح زمن ديستوبي يتحرك فيه التنبؤ بالخراب والتنبيه من المستقبل المخيف الذي تنتظره جهة ما فيما لو لم تطبق التعاليم الروحية المقررة لها أو بما تقدمه الديانات من استشراف مستقبلي لأحداث آخر الزمان وفي كل ذلك يبدو الاستشراف شكل من أشكال الاستبطان الديستوبي للحياة.

الاقتباسات

(١) اليوتوبية :١٣ ،لايمان تاور سارجنت ترجمة ضياء ورّاد ،مؤسسة هنداوي للثقافة والتعليم، القاهرة ٢٠١٦ ط١
(٢) (الخيال العلمي مقدمة قصيرة جدا :٧٤ ديفيد سيد مراجعة هبة عبد المولى احمد مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة مصر ٢٠١٦ ط١
(٣) مجلة إضاءات نقدية : ١٣٦
(٤) المرجع في روايات الخيال العلمي : ١٢٧ ، ماري توماس، كيث بوكر ،ترجمة- عاطف يوسف محمود، المركز القومي للترجمة القاهرة ٢٠١٠ ط١
(٥) المرجع في روايات الخيال العلمي: ١٢٧
(٦) المرجع في روايات الخيال العلمي : ١٤٠
(٧) ()مشهديات الديستوبيا في رواية "جملكية آربيا" لواسيني الأعرج د.أحلام بن الشيخ مجلة العلامة العدد السادس ٢٠١٨ صفحة٦٥ جامعة قاصدي مرباح ورقلة الجزائر
(٨) ينظر آراء أهل المدينة الفاضلة ومضاداتها :١٠٣
(٩) آراء أهل المدينة الفاضلة ومضاداتها : ٩٣،ابو نصر محمد الفارابي مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة ٢٠١٦ ط١
(١٠) أدب الديستوبيا أو صرخات استغاثة لإنقاذ عالم يسير إلى نهايته بقلم زهور السايح ،موقع إيلاف الإلكتروني في ٢٠ أبريل نيسان ٢٠٢١،

(١١) الحكم على أدبية الديستوبيا ، بين الواقع والخيال : ٢٥
(١٢) الاستشراف في أدب الخيال العلمي : ٩٠، محمد الهادي عيّاد ،مجلة الموقف الأدبي ; العدد. المجلد ٤٤، العدد ٥٣٠ (٣٠ يونيو/حزيران ٢٠١٥)
(١٣) مجلة إضاءات نقدية : ١٣٣ السنة الثامنة العدد التاسع والعشرون آذار ٢٠١٨ فاطمة برجكاني جامعة آزاد الإسلامية ،إيران
(١٤) مجلة إضاءات نقدية :١٣٦
(١٥) مجلة إضاءات نقدية ك ١٤٠
(١٦) الحكم على أدبية الديستوبيا ، بين الواقع والخيال :٢٥ خالد بلقاسم ،مجلة الدوحة العدد١٤٨ فبراير شباط ٢٠٢٠ قطر.
(١٧) تجليات الديستوبيا في الرواية الجزائرية ، رواية وطن من زجاج لياسمينة صالح أنموذجا : ٤
(١٨) الاستشراف في أدب الخيال العلمي : ٩٠
(١٩) موقع إيلاف الإلكتروني في ٢٠ أبريل نيسان ٢٠٢١ أدب الديستوبيا أو صرخات استغاثة لإنقاذ عالم يسير إلى نهايته بقلم زهور السايح

(٢٠)[٢] العجائبية والبعد الديستوبي في نقد الأيدولوجية : ٣٦٠، خالد جمال حسين وأيسر محمد فاضل الدبو ، مجلة دراسات للعلوم الاجتماعية والإنسانية ، تصدر عن الجامعة الأردنية ، المجلد٤٧ عدد٢ ملحق ١ ٢٠٢٠
(٢١) مرة تحدثت لأصدقاء عن أحداث رأيتها بعيني في سجون الفاشست فانبرى لي أصدقائي بالتشكيك لأن قدرتهم على الاستيعاب لا يمكن لها تصديق رمي طفل رضيع في الحائط وتهشمه تماما لأن أباه لم يعترف على نفسه ، تلك الصورة المشوهة والمؤلمة لم يستطع أصدقائي استيعابها لسببين : الأول عدم قدرتي على تقديم المشهد بطريقة مقنعة تستبدل الواقع بآخر غير معقول والثاني أن الصورة المقدمة تجاوزت حد سقف أفق التوقعات والإقناع لديهم.
(٢٢) تجليات الديستوبيا في الرواية الجزائرية ، رواية وطن من زجاج لياسمينة صالح أنموذجا : ١،أ. فريدة جميعان القريناوي ، مجلة علوم اللغة العربية وآدابها ، غزة ،فلسطين، مجلد٢ عدد١ سنة ٢٠٢٣
(٢٣)[٣] العجائبية والبعد الديستوبي في الرواية الجزائرية المعاصرة :٣٤٢، فتحي خيرة وا.د.مسيردي مصطفى ، مجلة النص تصدر عن جيلالي ليابس سيدي بلعباس -الجزائر(المجلد ١٠ العدد ١ (٢٠٢٣)
(٢٤) الحكم على أدبية الديستوبيا ، بين الواقع والخيال: ٢٥
(٢٥) العجائبية والبعد الديستوبي في الرواية الجزائرية المعاصرة : ٣٤٥
(٢٦) الحكم على أدبية الديستوبيا ، بين الواقع والخيال :٢٦
(٢٧) تجليات الديستوبيا في الرواية الجزائرية ، رواية وطن من زجاج لياسمينة صالح أنموذجا : ١٤
(٢٨) الخيال العلمي مقدمة قصيرة جدا :٨٧،ديفيد سيد ،ترجمة نيفين عبدالرؤوف، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة ٢٠١٦ ط١
(٢٩) شرح ديوان عنترة:١٣٥ ، الخطيب التبريزي قدم له ووضع هوامشه وفهارسه مجيد طراد ،دار الكتاب العربي بيروت ١٩٩٢ ط١
(٣٠) بحوث في التربية الفنية والفنون ،كلية التربية جامعة حلوان مصر المجلد٢١ العدد١ ،حول مفهوم اليوتوبيا والديستوبيا كمدخل للاستلهام في الفن المعاصر:٢٨٢
(٣١) بحوث في التربية الفنية والفنون ،كلية التربية جامعة حلوان مصر المجلد٢١ العدد١ في ديسمبر٢٠٢٠، حول مفهوم اليوتوبيا والديستوبيا كمدخل للاستلهام في الفن المعاصر ،سلمي أبو زيد شتا العشري :٢٧٦
(٣٢) الحكم على أدبية الديستوبيا ، بين الواقع والخيال : ٢٦
(٣٣) مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بدمنهور العدد الخامس الجزء الثالث ٢٠٢٠ صفحة ٧٦٢الرواية الديستوبية المصرية مظاهرها ولغتها :د. أسماء إبراهيم حسين شنقار
(٣٤) في الانفصال :٧ عبدالسلام بنعبدالعالي دار توبقال للنشر الدار البيضاء المغرب ٢٠٠٨ ط١
(٣٥) ديستوبيا مقال في جريدة الصباح العراقية للكاتب حميد المختار في ٢٠٢٠/٠٦/٠٧
(٣٦) الخيال العلمي مقدمة قصيرة جدا :٩٥
(٣٧) تجليات الديستوبيا في الرواية الجزائرية ، رواية وطن من زجاج لياسمينة صالح أنموذجا : ١٦
(٣٨) الخيال العلمي مقدمة قصيرة جدا : ٩٧
(٣٩) عصر الظهور : ٧٠ علي الكوراني مكتب الإعلام الإسلامي قم- ايران شعبان١٤٠٨ ، ط١
(٤٠) عصر الظهور :٦٨

المصادر

١. آراء أهل المدينة الفاضلة ومضاداتها ،ابو نصر محمد الفارابي مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة ٢٠١٦ ط١
٢. الاستشراف في أدب الخيال العلمي ، محمد الهادي عيّاد ،مجلة الموقف الأدبي ; العدد. المجلد ٤٤، العدد ٥٣٠ (٣٠ يونيو/حزيران ٢٠١٥)
٣. بحوث في التربية الفنية والفنون ،كلية التربية جامعة حلوان مصر المجلد٢١ العدد١ ،حول مفهوم اليوتوبيا والديستوبيا كمدخل للاستلهام في الفن المعاصر
٤. بحوث في التربية الفنية والفنون ،كلية التربية جامعة حلوان مصر المجلد٢١ العدد١ في ديسمبر٢٠٢٠،حول مفهوم اليوتوبيا والديستوبيا كمدخل للاستلهام في الفن المعاصر ،سلمي أبو زيد شتا العشري
٥. تجليات الديستوبيا في الرواية الجزائرية ، رواية وطن من زجاج لياسمينة صالح أنموذجا ،أ. فريدة جميعان القريناوي ، مجلة علوم اللغة العربية وآدابها ، غزة ،فلسطين، مجلد٢ عدد١ سنة ٢٠٢٣
٦. الحكم على أدبية الديستوبيا ، بين الواقع والخيال ، خالد بلقاسم ،مجلة الدوحة العدد١٤٨ فبراير شباط ٢٠٢٠ قطر.
٧. الخيال العلمي مقدمة قصيرة جدا ، ديفيد سيد مراجعة هبة عبد المولى احمد مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة مصر ٢٠١٦ ط١
٨. ديستوبيا مقال في جريدة الصباح العراقية للكاتب حميد المختار في ٢٠٢٠/٠٦/٠٧
٩. الرواية الديستوبية المصرية مظاهرها ولغتها :د. أسماء إبراهيم حسين شنقار مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بدمنهور العدد الخامس الجزء الثالث ٢٠٢٠م
١٠. شرح ديوان عنترة، الخطيب التبريزي قدم له ووضع هوامشه وفهارسه مجيد طراد ،دار الكتاب العربي بيروت ١٩٩٢ ط١
١١. العجائبية والبعد الديستوبي في الرواية الجزائرية المعاصرة، فتحي خيرة وا.د.مسيردي مصطفى ، مجلة النص تصدر عن جيلالي ليابس سيدي بلعباس -الجزائر(المجلد ١٠ العدد ١ (٢٠٢٣)
١٢. العجائبية والبعد الديستوبي في نقد الأيدولوجية ، خالد جمال حسين وأيسر محمد فاضل الدبو ، مجلة دراسات للعلوم الاجتماعية والإنسانية ، تصدر عن الجامعة الأردنية ، المجلد٤٧ عدد٢ ملحق ١، ٢٠٢٠
١٣. عصر الظهور علي الكوراني مكتب الإعلام الإسلامي قم- ايران شعبان١٤٠٨ ، ط١
١٤. في الانفصال ، عبدالسلام بنعبدالعالي دار توبقال للنشر الدار البيضاء المغرب ٢٠٠٨ ط١
١٥. الديستوبيا (المدينة الفاسدة) في الرواية العربية المعاصرة؛ قراءة في رواية اورويل في الضاحية الجنوبية لفوزي ذبيان مجلة إضاءات نقدية ،السنة الثامنة العدد التاسع والعشرون آذار ٢٠١٨ فاطمة برجكاني جامعة آزاد الإسلامية ،إيران
١٦. المرجع في روايات الخيال العلمي ، ماري توماس، كيث بوكر ،ترجمة- عاطف يوسف محمود، المركز القومي للترجمة القاهرة ٢٠١٠ ط١
١٧. موقع إيلاف الإلكتروني في ٢٠ أبريل نيسان ٢٠٢١، أدب الديستوبيا أو صرخات استغاثة لإنقاذ عالم يسير إلى نهايته بقلم زهور السايح
١٨. اليوتوبية ،لايمان تاور سارجنت ترجمة ضياء ورّاد ،مؤسسة هنداوي للثقافة والتعليم، القاهرة ٢٠١٦ ط١